الدكتور أمير إسكندر

صدام حسين جدل الماضي والمستقبل



منشورات الطليعة
2000

صدام حسين
جدل الماضي والمستقبل

الدكتور أمير إسكندر
القاهرة

1980

ليست السلطة بالنسبة لرجل الثورة نهاية المطاف انها بداية او لنقل انها بداية جديدة لنضال اخر شاق ومرير هو ايضا من اجل وضع الاهداف والبرامج والافكار المجردة موضع التطبيق.

ان العراق صبيحة الثلاثين من تموز كان يبدو جبلا هائلا من المشاكل والمعضلات على الصعيد النظري والعملي سواء بسواء وصحيح ان حزب البعث العربي الاشتراكي الذي تولى السلطة الان يملك المنطلقات النظرية الخاصة به ومع ذلك فان النظريات مهما كان عمقها او شمولها لا يمكنها ان تتحرك وحدها وليس بوسعها ان تتحول الى حياة نابضة والى واقع حافل بالمنجزات بدون العقل السياسي القيادي المفكر ومن غير الحرارة اللافحة المنبعثة من صدور الجماهير فان لم يتوفر هذان الشرطان لها لاتصبح تلك النظريات في اسعد احوالها الا (يوتبيات) تهوم من الخيال الانساني المجنح المفارق دائما للواقع الاجتماعي المحدد في المكان والزمان.

ولقد كان صدام حسين يعرف هذه الحقيقة معرفة يقينية ان مهاراته وقدراته ومواهبه لاتتبدى في النضال السلبي فحسب ولاتظهر في تنظيمات الخفاء السرية فقط انها تتجلى هنا ايضا وربما ابعد واعمق مما كانت في العلن تحت شمس العراق الساطعة ابدا في الجدل الحي مع الجماهير في الصراع الملتهب بين الحلم والواقع في البناء لم يكن غريبا ان يصفه نقيب المهندسين في بلاده بانه (مهندس الثورة) بكل مايوحى به هذا الوصف من معاني العقل المخطط والارادة القادرة على وضع المشروع الثوري في صيغه التنفيذية بموهبة وجدارة وابتكار.

لابد لنا من ان نتوقف هنا وقفة طويلة لنتامل مشروعه الفكري المتكامل الذي ينطوي على تصوراته ومفاهيمه واتجاهاته المرحلية والاستراتيجية على السواء وحتى اذا لم نستطع ان ندقق النظر في كل التفصيلات الصغيرة او التطبيقات العديدة فان

الاركان الاساسية والمحاور الجوهرية لهذا المشروع الثوري المتكامل يمكنها ان تقدم صورة قد لاينقصها الشمول لابعاده الانية وافاقه القريبة والبعيدة معا.

1- التاريخ وبعث الامة

القادة التاريخيون للشعوب والامم ينطوون عادة في اعماقهم على احساس مفرط بالتاريخ وسواء كانوا واعين بهذه الحقيقة او لم يكونوا كذلك فان هذا الاحساس العارم الذي يوشك ان يبلغ ما تبلغه الغريزة من تأصل وتجذر في النفس هو الذي يمثل في غالب الاحيان دوافع افعالهم وبواعث ارادتهم ويختلف شكل هذا الاحساس بطبيعة الحال من قائد لاخر ومن عصر لعصر بحسب طبيعة كل قائد ومجاله وتكوينه النفسي والاجتماعي والايديولوجي وتبعا لظروف المكان ومتغيرات الزمان في كل عصر. في الماضي كانوا يقيمون الاهرامات والمعابد والقبور العظيمة ويحفرون على جدرانها اخبار فتوحاتهم وانباء انتصاراتهم وصور منجزاتهم حتى يراها او يقرأها الاتون من بعدهم فيحتفظون بجذوة التفرد والعظمة متوقدة كما يظنون جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن هكذا فعل قادة مصر القديمة وبابل واشور في العصور الاولى للتاريخ وهكذا فعل ايضا قادة اليونان والرومان فيما تركوه من الاثار والمعابد والتماثيل والاعمدة والمقابر واقواس النصر.. كتن الاحساس التاريخي لديهم احساسا بالديمةمة بالبقاء. ان لم يكن نزوعا الى الخلود. لا لأرواحهم فحسب بل واحيانا لكيانهم المادي كما اراد جلجامش.

اما في العصور الحديثة حيث لم تعد مع حركة التطور الاجتماعي والثقافي – المعابد الكبرى وفنون العمارة الضخمة الشاهد الصادق – والوحيد على الاقل – على تميز عصر او عظمة فرد وحيث لم تعد الشعوب نفسها كتلة سديمية تتحرك بارادة الملك – الاله. او الملك – الشمس. فان الاحساس التاريخي لدى القادة المعاصرين بدأ يتجلى في شكل اخر هو الاهتمام المباشر من جانبهم بكتابة التاريخ نفسه حتى ولو لم يكن تاريخ افراد او ابطال متفردين بل تاريخ شعوب واحزاب وحركات اجتماعية وسياسية وايديولوجية ومن النادر ان نفتقد اليوم في كل المجتمعات المعاصرة بما فيها مجتمعات العالم الثالث – وبينها بالطبع مجتمعاتنا العربية – المحاولات المتكررة لاعادة كتابة التاريخ خصوصا عند الوقفات او المنعطفات المهمة في مسيرته بل ربما لم يعد يثير فينا الدهشة الان ان نشهد مثل هذه المحاولات لاعادة كتابة التاريخ في المجتمعات الاشتراكية نفسها حيث يدين قادتها وكتابها ومؤرخوها بنظرية واحدة في تحليل التاريخ وبمنهج واحد في كتابته. كلما انتهى عهد او قض قائد من قادتها وليس الاتحاد السوفيتي اللينيني ثم الستاليني ثم المؤتمر العشرون المثال الوحيد على ذلك فبولونيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا.. امثلة اخرى مضافة بل ان الصين نفسها صين مابعد ماو بدأت تسير على الدرب نفسه وتنسج على نفس المنوال.

اخطأ ذلك ام صواب؟ربما لايكون ذلك هو السؤال الجوهري وقد يجدر بنا ان نسأل قبل ذلك : هل الحقيقة التاريخية نسبية الى هذا الحد بحيث تقبل التشكل والتلون بحسب زوايا الرؤية ومدى النظر واحيانا بحسب النوازع والاهواء؟

ولكن ماهي الحقيقة التاريخية نفسها؟ ان هذا السؤال الذي تبدو اجابته يسيرة لدى البعض او حتى بديهية هو في الواقع من اعقد الاسئلة التي تواجه المؤرخ او المفكر على حد سواء ان المنطق الشائع قد يجيب على الفور ان حجر الزاوية في اي (تاريخ) هو

مجموعة الحقائق الاساسية التي لايختلف عليها المؤرخون جميعا بصرف النظر عن مدارسهم الفكرية او فلسفاتهم الاجتماعية. كأن نقول مثلا ان ثورة وقعت في مصر عام 1952 او ان ثورة قامت في العراق عام 1968 ولكن مثل هذه الحقائق التي هي ضرورية ومهمة بالنسبة الى المؤرخ هي اقرب ماتكون الى الالوان بالنسبة الى المصور او بمواد البناء بالنسبة الى المهندس المعماري ليس من المتصور ان يبدأ رسام انجاز لوحة من لوحاته او ان يسعى مهندس لاقامة بناء من دون ان تكون لدى الواحد منهما (مواده) الاساسية لكن هذه المواد الاساسية هي في النهاية شئ مختلف عن (اللوحة) وعن (العمارة) التي ينتهي اليها المصور او المهندس المعماري.

الحقائق المتماثلة لدى المؤرخين جميعا هي اذن المواد الاساسية او المواد الخام التي يتناولها كل مؤرخ على حدة ويعالجها طبقا لاتجاهه الفكري الخاص وانطلاقا من منظوره الاجتماعي المحدد ليصنع منها (تاريخا)هو في النهاية سلسلة من الاحكام المقبولة او المبررة لدى قطاع من الناس وكلما كانت هذه المواد الاساسية او الخام اكثر قدما واشد عراقة ازداد (التاريخ) خضوعا – على عكس الراي الشائع – للتلون والتشكيل باراء ومواقف المفكرين والمؤرخين الخاصة كل حسب حاجته الاجتماعية او تبعا لاتجاهه.

ماذا نعرف بحق عن اليونان القديمة؟نحن نعرف ماقدمه المؤرخون لنا من صور لاثينا من وجهة نظر المواطن الاثيني في عصر امجاد اثينا في القرن الخامس قبل الميلاد ولكن كيف كانت تبدو اليونان القديمة من وجهة نظر اسبرطةوكورينثة وثيبا؟ كيف كانت صورتها في عيون الفرس او العبيد او المقيمين في اثينا من غير (المواطنين)؟ اليس مانعرفه اقل القليل؟

الامر نفسه ينطبق على الحضارات القديمة كلها حضارة وادي النيل و وادي الرافدين والصين والهند. وغيرها بل لا تفلت منه حضارة القرون الوسطى الاوروبية نفسها يذكر (ادوارد كار) وهو احد كبار المؤرخين اللامعين في عصرنا – ان مانعرفه باسم وقائع القرن الوسيط قد جرى اختيارها كلها تقريبا من قبل اجيال من المؤرخين كانوا منشغلين مهنيا بنظرية وتطبيق الدين والذين اعتقدوا بناء على ذلك بانها مهمة جدا وسجلوا كل ماهو مرتبط بها وماكان انشغالهم بغيرها ليرقى الى هذا المستوى من الاهمية ان صورة الفلاح الروسي المتدين الورع قد تحطمت بثورة 1917 بينما صورة الرجل المتدين الورع في العصر الوسيط سواء كانت صحيحة ام لم تكن هي غير قابلة للانهيار لان الحقائق المعروفة عن ذلك العصر تقريبا قد سبق ان اختيرت لنا من جانب اناس صدقوها وارادوا من الاخرين تصديقها في الوقت الذي نجد فيه عددا اخر من الحقائق والتي ربما كان ممكنا ان نجد فيها دليلا على عكس ذلك قد فقدت وراء الذاكرة ان الذراع الميتة لاجيال المؤرخين والناسخين قد صممت شكل الماضي من دون ان توجد امكانية لاكتشافها.

ولكن اليس ثمة بين ايدينا احيانا بعض (الوثائق) التي يمكنها ان تبدل المنظور؟... في القرن الماضي فقط حيث كانت الفلسفات الوضعية تسعى لان تجعل من (التاريخ) علما اشبه بالعلوم التجريبية كانت (الوثيقة) تحظى بنوع من التقديس لقد كانت الحقيقة (حقيقة) لانها وردت في (الوثيقة) وهو مايمثل الدليل القاطع – الذي هو اشبه بالدليل الحسي المباشر في التجارب العلمية – على انها لاتقبل النقض او الشك كانت الوثيقة هي الخبز المقدس الذي يتناوله المؤرخ حتى يعبر الى ملكوت التاريخ ولكن سياتي وقت بعدها يطوي القرن التاسع عشر شراعه يتساءل فيه مؤرخون بارزون في القرن العشرين بقلق؟

ولكن ماذا تخبرنا الوثائق – المراسيم والمعاهدات والكتب الزرقاء والمراسلات الرسمية والاوراق الخاصة واليوميات – اذا ما تفحصناها بدقة؟ ما من وثيقة بوسعها ان تخبرنا اكثر مما اراد لها محررها الشئ الذي اعتقد هو بانه حدث او الذي اعتقد بوجوب حدوثه او انه سيحدث او لربما ماأراد من الاخرين ان يفكروا بما فكر به. او حتى فقط ما اراد هو نفسه ان يعتقد بانه فكر به...)

ثم يضيفون قائلين وكانهم عثروا على شفاء للقلق (ليس لهذه الامور اية اهمية الى ان يباشر المؤرخ تاثيره فيها وفك مغاليقها ان الحقائق سواء وجدت في الوثائق ام لم توجد فانها لابد ان تخضع لصنع المؤرخ ان الفائدة التي يستخلصها من الوثائق هي عملية الصنع)

افهل يعني ذلك – مرة اخرى – ان الحقيقة التاريخية نسبية الى هذا الحد؟لا ونعم في نفس الوقت.. لا. من حيث ان (الحدث) التاريخي – هذه المادة الاساسية او الخام – هو في نهاية الامر واقعة موضوعية بمعنى ان لها وجودها المستقبل في الزمان والمكان المحددين ونعم من حيث ان تفسير هذا الحدث او تأويله يخضع للمعالجة الخاصة لكل مؤرخ او مفكر تبعا لزاوية رؤيته السياسية وموقفه الاجتماعي واتجاهه الايديولوجي واذا كان ماقاله (هيجل) صحيحا من (ان كل تاريخ فلسفة) و(كل فلسفة تاريخ) فمعنى ذلك اننا لانقرأ مايمكن تسنيته بالتاريخ الموضوعي المجرد ابدأ وانما نحن نقرأ على الدوام (فلسفة تاريخ).

ولن يختلف الامر بعد ذلك فيما يتعلق بالمعالجات المتعددة للحدث التاريخي من زاوية انها كلها- ارادت او لم ترد – تصدر عن فلسفات متعددة وقبولها او رفضها ينبع في الواقع من قبولنا او رفضنا لهذه الفلسفات تبعا (لفلسفتنا) المعينة وها هنا يصبح البحث التاريخي بحثا فلسفيا في صميمه وتغدو الكتابة التاريخية كتابة تعكس تأويلا فلسفيا في جوهرها ولا تكون الاحكام التي نصدرها على التاريخ المكتوب او الذي نعيد كتابته الا احكاما فلسفية في منطلقاتها او غاياتها.

ومع ذلك يظل الفارق هنا قائما وضروريا بل واجبا فالتسوية بين المعالجات التاريخية المختلفة مثلما هي التسوية بين الفلسفات المختلفة هي (موضوعية) زائفة فضلا عن انها محض تجريد مختلق حتى لو تحقق فانه لا يؤدي الا الى العدمية الاجتماعية والتاريخية ولا يقود في النهاية الا لخدمة الرجعية في كل مجتمع وكل عصر فكيف يمكن التسوية بين معالجة تاريخية تعتبر التاريخ تسجيلا لانباء الملوك والامراء – والكهان الذين بنوا اهراماتهم على اجساد شعوبهم ورفعوا اعمدتهم واقواس نصرهم على جماجم البشر وبين معالجة تاريخية اخرى تعتبر التاريخ سجلا لحاصل الجمع المتفاعل بين شعوب وقادتها في اطار لحظة محددة في المكان والزمان؟كيف يمكن التسوية بين فلسفات تاريخية تجعل من التاريخ تجليا لقوى مجهولة غامضة عمياء وبين فلسفات تاريخية اخرى تحيل التاريخ الى محصلة لتفاعل نضالات البشر الشاقة والعنيدة لامتلاك مصيرهم؟بل كيف يمكن التسوية بين من يعتبرون التاريخ.. تاريخ (افراد) عظماء من جانب ومن يعتبرونه تاريخ (جماهير) صماء من جانب اخر ومن يعتبرونه ثمرة لعلاقة جدلية – تاريخية بين جماهير مناضلة وقيادات وطلائع حية من جانب ثالث؟وكيف يمكن للتقدم – الذي هو امل البشرية جمعاء ومناط طموحها – ان يتحقق مادام الامر لايخضع في النهاية الا لظهور العبقري الفرد وحده او للحركة العشوائية للكتل السديمية وحدها؟

هاهنا يبدأ الانتقاء وتتحدد طبيعة الاختيار وتتميز هوية الباحث او المفكر او المؤرخ او القائد السياسي التاريخي.

ومن هنا تنطلق المعالجات التاريخية المختلفة ويتجسد التاويل الفلسفي ويطرح الاشكال بالضرورة نفسه ولقد طرح صدام حسين الاشكال من زاوية التاريخ العربي وبعث الامة العربية وقدم في معالجته ثلاث مساهمات فكرية : الاولى تحت عنوان (كيف يكتب التاريخ؟) والثانية تحت عنوان يجب ان لا نتحدث عن التاريخ بصورة معزولة عن الزمن وتفاعلات الاحداث) والثالثة تحت عنوان : (حول كتابة التاريخ).

في مساهمته الاولى طرح الاشكال من زاويته الفلسفية العامة : (لمن يكتب التاريخ وكيف يكتب؟ هل يكتب التاريخ للاحياء ام للاموات والشهداء؟ ولماذا نلح على ان يكتب التاريخ ز بما ينصف الفرد المستحق دون ان يكون انصافه على حساب المجتمع؟)

وهو قد اجاب على السؤال الاول بان التاريخ يكتب بطبيعة الحال للاحياء من الناس في المجتمع وتاريخ البطولة والابطال ليس مجرد تحية او شهادة لمن قدموا ارواحهم من اجل الوطن فحسب وانما هو – وربما في الاساس – درس للمناضلين من بعدهم وانموذج يعلى امامهم حتى يسيرون على دربه ويحتذونه. التاريخ لا يكتب للموتى للاضرحة الرخامية الصماء كان المسيح يقول (دعوا الموتى يدفنون موتاهم) وكان يعني بذلك ان الحياة هي هم الاحياء الاول فاذا لم يكن بوسعنا ان نتحدث الى الاحياء ونتوجه اليهم ونوجههم فكيف يمكننا ان نفعل ازاء من اصبحوا مجرد ذكرى في الخيال او طيف في القلب؟ ان التاريخ اذا لم يكن متوجها الى الاحياء وموجها لهم فقد فاعليته وايجابيته وديناميكيته بل لعله يفقد تبريره ايضا.

واذا كانت تلك النقطة بمثابة المدخل المنطقي للاشكال فان القضية التي تمثل صلب الاشكال نفسة هي قضية الفرد والمجتمع وعلاقتهما بالتاريخ وعلى الرغم من تراكم المؤلفات وتعدد التيارات الفلسفية والاجتماعية التي عالجت هذه القضية خصوصا منذ ان بلغ الوعي التاريخي ذروته الاولى في اوروبا الحديثة في القرن الثامن عشر فان السؤال مازال قائما واختيارات الاجابة ما فتئت مطروحة امام المفكرين لقد كتب أ. ج. ب تيلور بعد الحرب العالمية الثانية يقول : (انه بالامكان كتابة تاريخ اوربا الحديث بلغة الجبابرة الثلاثة. نابليون وبسمارك ولينين.. في الوقت الذي كان تولستوي قد كتب من قبل قائلا في محاولة للانتقاص من دور الرجال العظماء في التاريخ : انهم ليسوا اكثر من القاب تعطي الاسماء للاحداث.. اما هيجل.. ذلك الذي حقق في فلسفة التاريخ مالم يسبقه اليه احد وربما – بمعنى مامن المعاني – لم يلحق به ايضا احد فانه كان يقول (ان الرجل العظيم في عصر ماهو الذي يستطيع ان يعبر عن ارادة عصره في كلمات ويدل عصره على ارادته وينيرها ان مايفعله هو قلب وروح عصره انه يحقق عصره)

صدام حسين يجيب على السؤال المطروح الان بقوله (هل تصورنا يوما ما ان تتقدم الحياة والمجتمع او اي فرع فيهما على طريق الاهداف المرسومة بدون قائد او قيادات؟ الجواب لايمكن تصور ذلك ولم يكن في التاريخ استشهادات يقتدي بها في هذا الاتجاه) ثم يضيف بعد ذلك جوهر الاجابة على السؤال قائلا : ان القائد هو ابن المجتمع وابوه في ان معا. هو ابن المجتمع في عملية الخلق الاولى والتكون الاول وهو ابو المجتمع في المرحلة التي يلعب فيها ادوارا قيادية.. وعندما يكون القائد ابأ للمجتمع لا يعني ذلك ان يكون ابأ عشائريا متخلفا بمعنى ان يكون وصيا عليه وانما تكون ابوته ضمن سياق العلاقة الديمقراطية الثورية وماتتطلبه من تفاعل...)

مالذي تعنيه هذه العبارات؟انها تعني رفض الاتجاه الذي يجعل التاريخ فيضا من عبقرية افراد عظماء من جانب كما تعني رفض الاتجاه الاخر الذي يجعل التاريخ مجرد محصلة ميكانيكية لجماهير لكتل تتحرك بغير (بوصلة) وسط العباب ثم هي بعد ذلك

تطرح الوضع الصحيح للاشكال : هناك مجتمع من جانب وقائد من جانب اخر والعلاقة بينهما هي علاقة تفاعل. اي علاقة اخذ واعطاء.. اي علاقة ديناميكية جدلية تسير من الفرد الى المجتمع ومن المجتمع الى الفرد بغير انقطاع ان اسطورة (روبنسون كروزو) الشهيره التي جسدت في الخيال صورة فرد مستقل يفزع الى جزيرة بعيدة ليبني فيها مملكته الفردية المنعزلة قد تحطمت الان حتى في الفكر الغربي الذي ابعدها في مرحلة من مراحل تطور المجتمع الاوروبي حين كانت البرجوازية طبقة صاعدة تبحث عن تقديس (الفرد) الصاعد واكتشف الاوربيون بعد ذلك ان روبنسون كروزو لم يكن حتى على المستوى الشخصي فردا مجردا وانما كان انجليزيا من (يورك) وكان يحمل معه انجيله ويصلي لالهة بل واكثر من ذلك سرعان مابني مجتمعا جديدا رغم فرديته وعلى انقاضها.

اما الذين اعتبروا التاريخ مجرد تسجيل لحركة (الجماهير) اشبه بالجهاز العلمي الذي يقيس حركة الزلازل في طبقات الارض وبسطوا الماركسية والتي يدعون التحدث باسمها وحولوها الى ((عدد محدد من العقائد الثابته : ثلاث مبادئ للمادية واربعة قوانين للجدلية وخمس مراحل لتطور المجتمعات التاريخي)) فلعلهم ينتمون في سلالتهم الفكرية الى اولئك الذين قال عنهم ماركس نفسه (لو كانت هذه الماركسية فكل ما اعرفه انني غير ماركسي)) ذلك لان التاريخ كما قال هو ايضا لايفعل شيئا انه لايملك الثورة الهائلة ولايخوض المعارك انه الانسان الانسان الحي الذي يفعل كل شئ هو الذي يملك الثورة وهو الذي يقاتل..

انماينقص هؤلاء جميعا هو الجدل.. وصدام حسين الذي اجتهد في ان يضع القضية وضعا جدليا صحيحا محاولا ان يقرّبها من اذهان قرائه ومستمعيه بتشبيهها بعلاقة البنوة والابوة لم يتوقف عند هذا الحد فقط بل انه اعتبر ايضا عظمة الافراد او بطولتهم هي بدورها ابنة المجتمع (علينا ان لا ننسى ان البطولة ايضا هي ابنة المجتمع في جانب اساس منها اذ لو لم يكن المجتمع انذاك بطلا في استعداده للتضحية وفي وعيه وفي عطائه وفي ارادته لما انجب بطلا وعلينا على هذا الاساس ان نربط ربطا صحيحا بين ذلك وبين دور الفرد ومبادراته وتضحياته بهذا الاطار اي ان لانتحدث عن دور الشعب في المجتمع ونسقط دور الفرد ونسحقه او نتحدث عن الفرد ونسحق دور الشعب في المجتمع لان الاتجاهين خاطئان والمطلوب هو ان نتحدث عن المجتمع وعن الفرد في عملية تفاعل تام.

ومع ذلك ربما يجدر بنا ان لا ننسى ايضا ان ثمة نوعين من العظماء :فهناك العظماء الذين يمثلون على الدوام القوى الموجودة ويعبرون عنها وهناك ايضا العظماء الذين يساعدون في خلق هذه القوى عن طريق تحدي السلطة الموجودة.. ويبدو لنا ان ((ادوارد كار)) كان مصيبا تماما في قوله : ان ماهو جوهري في تقديري هو ان نجد في الرجل العظيم فردا بارزا نتاجا للعملية التاريخية ومساعدا لها في نفس الوقت انه ممثل القوى الاجتماعية وخالقها معا.. تلك القوى التي تغير شكل العالم وافكار البشر...

لاصلاح المناهج الدراسية تكلم كمعلم كموجه كمرب كأب ولكن دون ان يفقد بعده النظري الاصيل ابدأ.

قال((لكي نشير الى عظمة انسان ما او عمل ما لايكفي ان نتحدث عن ذلك بصيغ مجردة معزولة عن الزمن ومراحله وعن تفاعلات الاحداث انما يجب ان نربط ذلك بمجموعة العوامل المتصلة بالزمن وبالامكانات الذاتية والعوامل المتصلة بالظروف المحيطة به لكي تبرز عظمته في اطارها الصحيح..) ماالذي يعنيه بالعزلة عن الزمن ومراحله؟ ان مسألة الربط بين الحدث التاريخي وظروفه في

المكان والزمان ليست جديدة في الفكر التاريخي عامة. ان الربط بين البطل التاريخي وتلك الظروف هو ايضا مسألة مستقرة حتى لدى بعض المؤرخين البرجوازيين المستنيرين انفسهم لقد لاحظ (جيبون) صاحب (انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية).. (انها لحقيقة بديهية ان الاحوال السائدة يجب ان تتلائم مع الشخصيات الفذة وانه من الجائز ان تتلاشى الان عبقرية كرومويل او ريتز في الظلمة) ولقد قدر بعض المؤرخين الاخرين انه لو ان بسمارك على سبيل المثال قد ولد في القرن الثامن عشر – وهو افتراض غير معقول لانه ماكان سوف يصبح بسمارك – لما وحد المانيا ولربما ماكان بوسعه ان يكون رجلا عظيما وهو نفس ما يمكن ان ينطبق على نابليون او لنكولن او لينين او غيرهم.

ولكن صدام حسين لايعني هذا المفهوم القريب للعزلة عن الزمن او في الاقل لايعنيه وحده انه لايقصد عزلة الحدث التاريخي او البطل التاريخي عن اطاره الحاضر فقط وانما عزلته عن اطاره الماضي واكاره الذي يمكن ان يكون له في المستقبل ايضا ان التاريخ الذي هو نتاج للتفاعل عنده ينهض بالضرورة على الحركة وماذا تعني الحركة غير التحول والاستمرار والتفرد والجدة دائما؟

من هنا كان انتقاده لبعض (المصطلحات الخاطئة) التي تستخدم احيانا في وصف الثورة مثل وصفها بانها (ثورة 17 تموز التقدمية)واعتبار صفة التقدمية هي السمة النهائية لها بينما الثورة في جوهرها قومية واشتراكية فوصفها بالتقدمية تقليل من قيمتها ومن جوهرها كثورة مستمرة باتجاه تحقيق اهدافها الستراتيجية..) كما كان ايضا وصفه للقرار التاريخي بتاميم النفط في العراق – ولقد كان في حد ذاته ثورة – في نفس اطار المفهوم السابق تعبيرا عن نفس المعنى : عندما نتحدث عن قرار التاميم الان مثلا فاننا نعتز به ونعتبره احد الاعمال العظيمة التي نفخر بها ولكن بعد عشر سنوات من الان وفي سياق المسيرة اللاحقة لن يحتل ذات الموقع النفسي المؤثر كما هو عليه الان ولن ترى صورته وطبيعته بنفس الحال الراهنة اذا ما جردناه من ظروفه واضعفنا صلته بالحياة او قطعناه عن مسيرة الثورة وعن الزمن والتفاعل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي المتصل بهذا القرار... وهو في هذين المثلين – اللذين اقتبسناهما من حديثه – يتحدث عن البعد المستقبلي للحدث اي عن ضرورة عدم العزلة عن المستقبل.

في امثلة اخرى عديدة اشار الى البعد الماضي للحدث اي الى عزلته او عزلة عن ماضيه ان الحديث عن الثورة وعن حزب البعث العربي الاشتراكي لا يكتسب بعده الموضوعي والتاريخي الصحيح مالم نتحدث عن الصورة السوداء التي سبقت الثورة في المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي والعسكري وانعكاس ذلك على السيادة الوطنية والنضال القومي وحياة الجماهير.

لايمكن فهم الحدث التاريخي او تقويم البطل التاريخي اذن بوضعه بين قوسين بل لابد من فتح السدود المصطنعة امام صيرورة الزمن غير اننا لا ينبغي ان ننجذب الى لحظة الماضي او الى لحظة المستقبل ونفتقد بعدهما مواضع اقدامنا ان لحظة الحاضر تحظى باهتمامه – وربما باهتمامه الاشد – فبدونهما يفقد الماضي معناه والمستقبل مبرره بل ربما امكن القول ان صدام حسين من القادة القلائل الذين يلاحظ المرء ان لديهم وعيا واضحا للبعد النفسي في لحظة الحاضر هذه ان البعد النفسي للاحداث والاشخاص والقرارات جزء لا يتجزأ دائما من حساباته..

تامل قوله : هناك نوعان من الامور تجذب الانسان : مايؤمن به ولا يراه على الاطلاق ومايؤمن به ويلمسه باستمرار وضمن حدود معلومة وعندما نتحدث عن شئ مرئي ليس في السماء ولكنه ايضا ليس في اليد فاننا بذلك نسقط تاثير واستخدام ماهو في اليد ونبدو كاننا نتحدث عن شئ مجرد لازال هدفا لم يتحقق بعد.. وشئ كهذا لايثير الحماس لدى المواطنيين بمستوى ماهو ملموس وهو في الوقت نفسه ليس قضية روحية نتعلق بها في مثل هذه الحالة نكون اخطأنا الحساب... يتجلى هذا البعد النفسي على سبيل المثال في نظرة المواطن العراقي الى القطر العراقي فلأن حزب البعث العربي الاشتراكي حزب قومي يناضل من اجل تحقيق الوحدة العربية وتجسيد القومية العربية في دولة عربية واحدة ولانه يؤمن بان العراق جزء من الامة العربية وقطر داخل الوطن العربي فان صفة (العراقية) كثيرا ماكانت تتراجع كثيرا الى الخلف وتنزوي امام الصفة الاعم والاشمل وهي العروبة والوطن العربي والامة العربية.

ولكن صدام حسين رجل الحسابات والموازنات النفسية الدقيقة يؤكد بوضوح اننا (يجب ان لا نسقط من الحساب ان نربي (العراقي) على ان يعتز بهذه الرقعة من الارض (القطر العراقي) التي يعيش عليها والتي هي (دستوريا) وطنه وان يكون مستعدا فكريا ونفسيا للدفاع عنها حتى الاستشهاد لانها وطنه الملموس والذي يتفاعل معه يوميا بشكل عملي خاص في حين ان تفاعله مع الوطن العربي هو تفاعل مبدئي عام.. وهذا يعني اننا يجب ان لا نغرق في القومي المبدئي ونترك الوطني المباشر كذلك لانغرق في الوطني المباشر ونترك الحديث عن مفاهيمنا القومية ومستلزمات النضال لتحقيقها.

افاق الزمن الثلاثة موجوده اذن ومتفاعلة في مفهومه عن الحدث التاريخي في مبناه او مغزاه والمفكر النظري بداخله لايطغى على القائد السياسي. كما ان القائد السياسي الذي يمسك بدفة سفينة السلطة في بلاده يدرك ادراكا يبلغ حد الايمان انه بدون البوصلة النظرية المحددة للطريق تصبح السفينة عرضة للارتطام بالصخور دائما والتمزق بين العواصف والانواء دون ان تبلغ شواطئها البعيدة او افاقها الموعودة.

وكمفكر نظري وقائد سياسي معا يتوقد في نفسه الطموح لبعث الامة العربية ودفعها لاحتلال مكانتها العالمية واداء رسالتها الانسانية ارقت صدام حسين طويلا مسالة كتابة التاريخ العربي هو ايضا يدرك بعمق المغزى الذي كان يعنيه (شوبنهور) بعبارته : في التاريخ فقط تتمكن الامة من وعي ذاتها وعيا تاما.

ذلك لانه مامن امة بلا شخصية وما من شخصية بلا تراث وما من تراث بلا تاريخ واذا كان معنى الشخصية الفردية من اشد المعاني تركيبا وتعقيدا في العلوم التي تدرس شخصية الافراد لانه يتضمن كل الصفات الجسمانية والوجدانية والعقلية والخلقية في تفاعلها وتكاملها خلال شخص معين يعيش في بيئة اجتماعية بعينها فما من شك اذن في ان معنى شخصية الامة اشد من ذلك تركيبيا وتعقدا بما لا يقاس لانه يشتمل على كل صفاتها المادية والمعنوية و الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والثقافية لا في تفاعلها وتكاملها فحسب بل في نموها وتطورها وارتقائها ومسارها ايضا ومع ذلك ومهما كانت هذه العملية بالغة التعقد والتشابك والتركيب فان بلوغ امة من الامم درجة الاحساس بشخصيتها اي درجة الوعي لذاتيتها لوحدتها وتكاملها وتميزها هو في حد ذاته علامة لا تخطئ على رشدها ونضجها.

ولاتتم الوحدة والتكامل في شعور الافراد الا بسلامة الذاكرة وتماسك حلقاتها في تيار متصل يربط بين مراحلها المختلفة ويجمع خبراتها الحية ويمثل عنصر الثبات وسط سائر عناصرها المتغيرة وهكذا الامر بالنسبة للامم لابد لها من ذاكرة تختزن فيها تجاربها وتحمي بداخلها تراثها وتصل بها بين انات الزمن المتعاقبة عليها وترسب من خلالها السمات الاساسية التي تتحدد في تطور شخصيتها.

وذاكرة الامم اسمها : التاريخ وليس المقصود بالتاريخ هنا اخبار الملوك والعروش والتيجان والسلاطين والامراء والخلفاء.. لا.. ولانباء الفتوح والغزو وما بعدهما من هزائم او انتصارات ولكنه تاريخ الانسان في بقعة ما من الارض بنضالاته وانجازاته بمعتقداته وثقافاته بقيمه وتصوراته انه باختصار الاسهام الذي يقدمه شعب من الشعوب في ملحمة الحضارة الانسانية ككل.

ولقد كان جوته يقول : انه يجب اعادة كتابة التاريخ من وقت الى وقت لا لان حوادث جديدة قد اكتشفت فحسب بل لان اشياء جديدة قد وقعت ولان الفرد المساهم في تقدم عصر من العصور يصل الى مواقف يمكنه بالاستناد اليها ان ينظر الى الماضي ويحكم عليه بشكل جديد..

وتاريخ الامة العربية لم يكتب حتى الان – لسوء الحظ – بمنظور قومي وعلمي ونقدي شامل ومتكامل البعض كتبه منطلقا من ظهور الاسلام وكانما الامة العربية لم توجد الا مع الاسلام وبفضل الاسلام والبعض الاخر لم يكتبه قط لانه في ايمانه الارثودكسي الجامد بالمفهوم الستاليني القاصر للامة والقومية اعتبر ان الامة العربية لم توجد قط وجودا متكاملا حتى الان وان القومية العربية مازال ينقصها شرط او شروط من البنود الستالينية حتى تتحقق والقوميون الاشتراكيون المستنيرون لم يكتبوا حتى الان سوى صفحات هنا او هناك حول هذا العصر او ذاك من العصور العربية ومازال السفر الكبير الضخم الشامل والمتكامل ينتظر من يكتبه.

ولكن كيف؟ان صدام حسين في مساهمته الثالثة التي حملت عنوان حول كتابة التاريخ يقدم دليلا لمنهج او قواعد لمنهج جديد في النظر الى التاريخ العربي وكتابته منطلقا من النظرة العامة لحزب البعث العربي الاشتراكي ورافضا للمنهجين القائمين في ساحة التاريخ العربي وهما : المنهج الديني والمنهج الماركسي... لان اصحاب المنهج الديني يسقطون من الحساب تقسير التاريخ للعوامل القومية والاجتماعية والاقتصاديةويعتبرون العامل الروحي هو كل شئ في صيرورة الامم في نهوضها وفي انكفائها وانسحاقها فيما يعتبر الماركسيون برد فعل غير متوازن ان صيرورة وتكون الامم في صعودها واخفاقها وتقدمها انما يعتمد على التفسير المادي للتاريخ مع اسقاط الاعتبارات الروحية والمعنوية وفعلها في حياة الامم.

فهل هو البحث عن طريق ثالث؟ كلا ولكنه البحث عن الشمول والتكامل ووحدة المركب دون نظرة واحدية الى هذا الجانب او ذاك في ضوء فلسفة ايجابية مناضلة تحاول ان تجعل من التاريخ سلاحا من اجل النهضة العربية الجديدة وتقدمها نحو وحدة الامة وحريتها وازدهارها الاجتماعي.

ان صدام حسين يضع الفرضية الاولى لمنهجه بقوله :

ان تاريخ الامة العربية يمتد الى عصور سحيقة في القدم وان كل الحضارات الاساسية التي نشأت في الوطن العربي انما هي تعبير عن شخصية ابناء الامة الذين نبعوا من اصل المنبع الواحد واذا كانت لتلك الحضارات خصوصية وطنية فان الخصوصية الوطنية انما هي جزء من السمة القومية الاعم والاشمل.

وواضح ان هذه الفرضية الاولى تتناقض مع الفرضية التي تعتبر بداية الامة العربية هي بداية الدعوة الاسلامية كما تتناقض بطبيعة الحال مع الفرضية الستالينية لنشأة القوميات وظهور الامم وهو يتقدم بعدها لينتقد المنهج الغيبي السلفي الذي يعتبر التاريخ العربي فيما قبل الاسلام تاريخا فارغا او مخجلا كما ينتقد المنهج الماركسي الذي يحلل التاريخ وكانه محض صراع طبقات لان المنهجين كليهما يجافيان حقائق التاريخ (فحين يتحدث الغيبي السلفي بالاتجاه الاسلامي التقليدي القديم الذي يصور العرب بانهم امة منفسخة متصورا بانه بذلك انما يقوي الدعوة الاسلامية ويوفر اسس ومستلزمات مشروعيتها الدنيوية انما يرتكب خطأ كبيرا ونرى ذلك في الكثير من الكتابات والافلام العربية وغير العربية بما يوحي بان العرب امة متفسخة الى الحد الذي اختار الله الرسالة لكي تنزل على اكثر امة على الارض تفسخا واكثر امة فيها الظلم والتردي من اجل اصلاحها في حين ان المنطق والواقع يقول : ان الامة يجب ان تواجه صعوبات كبيرة وضائقة غير عادية لكي تجعلها تثور وحتى تثور وتكون لها رسالة ودور انساني شامل يجب ان تكون للامة مكونات داخلية حية تجعلها قادرة على حمل الرسالة وتادية دورها.

وصدام حسين يلح على هذا المعنى اكثر من مرة والمنطق الذي يحكمه في ذلك هو ان الاسلام ثورة وثورة كبرى وليس من المعقول ان تقوم الثورات في المجتمعات الخامدة وبين الامم الميته العاجزة التي يسيطر عليها الفساد والتحلل والانحلال مثل هذه الامم ليس من الممكن ان تحدث فيها ثورات من الناحية العلمية وان تكون لها رسالة ذات بعد انساني وثوري)

ذلك لان حمل مثل هذه الرسالة لايمكن ان ينهض به الا اناس جديرون بذلك ولكن في الوقت نفسه لابد ان يكونوا في حالة مأزق تاريخي في شتى مناحي الحياة لكي تكون عملية التجدد مطلوبة وتظهر بصيغة ثورة وبنظرة شمولية للحياة.

والفرضية الثانية هي ان التاريخ هو النتيجة النهائية التي تقررها ارادة الامة ذاتها اي ان مجموعة البشر التي تعيش على اية رقعة من الارض عندما تقرر بارادتها المستقلة انها امة فان هذا يعني انها حققت ذلك لان ارادتها بشكل اساسي هي التي تقرر ان كانت امة ام لا وفي هذه الحالة تستخدم – عادة – كل ظواهر وعوامل الحياة الاخرى بما في ذلك التاريخ لتدعيم او اضعاف هذه الارادة.

فنحن العرب – اذن – امة واحة وجغرافية ارضنا هي الوطن العربي كله هذه هي النتيجة الحاسمة التي نعطيها اهتمامنا ولذلك يجب ان تكون قراءتنا للتاريخ وفق كيفية تخدم هذه الحقيقة.. وصدام حسين يدعو كتاب التاريخ – طبقا لهذا المنظور – الى التاكيد على حقائق التاريخ التي تدعم هذا المنهج (لان كثرة المدارس والاجتهادات والاحداث الضخمة في سجل التاريخ تجعل بمقدور اي انسان استعارة مايريده من بطون التاريخ لتعزيز المنهج الذي يؤمن به.. والتاريخ العربي لايشذ من هذه الحقيقة.. ونحن لاينبغي ان نفهم من هذه العبارات المعنى الذي كان يقصده.. ر. كولنجوود.. حيين قال : نظر سانت اوغسطين الى التاريخ من زاوية المسيحي الاول وتاليمونت من زاوية فرنسي عاش في القرن السابع عشر.. وجيبون من زاوية الانكليزي الذي عاش في القرن الثامن عشر وممس من زاوية الماني في القرن الثامن عشر فلا يوجد مبرر من وراء التساؤل عن وجهة النظر الصحيحة فكل

نظرة كانت تمثل النظرة الممكنة بالنسبة للرجل الذي تبناه... ذلك لان كولنجوود في عبارته تلك كان يرد على الذين اعتبروا التاريخ مجرد تجميع للحقائق من جانب وعلى الذين وصلت بهم النظرة الشكية الى اعتبار التاريخ مثل علبة حروف الاطفال التي يمكنهم عن طريقها كتابة اية كلمة يشاؤوها من جانب اخر. ان صدام حسين يقول على العكس بوضوح قاطع :

نحن لسنا في حاجة الى تزوير التاريخ او الى اصطناعه من اجل ان نقرأه قراءة بعثية وانما نحن بحاجة الى ان نفهمه فهما بعثيا ليس غير. وان ذلك يضفي عليه من الحقيقة مالم يكن ظاهر منها..

ان مايقصد اليه بالتحديد ليس اصطناع التاريخ الحديث او التاريخ القديم وليس احتلاق الوقائع او الاحداث والحقائق وانما هو الالتحام بتيار التاريخ من الداخل وليس التطلع اليه (من خارجه).

الفرضية الثالثة هي انه ينبغي ان يوضح في اعتبار كاتب التاريخ دائما مسألة مهمة هي ان الحقائق المكتوبة ليست هي كل الحقائق النهائية حتى وان اتفق عليها جميع المؤرخين والمحللين لان في كل مرحلة من مراحل التاريخ ماهو دفين لايقال لاعتبارات شتى وقد لايكون (الدفين) امرأ ثانوياً وانما قد يكون رئيسيا ومن الامور الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المهمة.. ومثل هذه الفرضية تنطوي في الواقع على اهمية بالغة سواء في العصور الماضية حيث لم تكن صناعة المعلومات قد وصلت الى ماوصلت اليه الان من تقدم او في العصور الحديثة نفسها حيث باتت هذه الصناعة الخطيرة في ايدي اجهزة ومؤسسات توجهها حسب المصالح والنوازع والاهواء التي تقتضيها السلطات الحاكمة او المهيمنه في المجتمعات المختلفة خصوصا منها التي تخضع للانظمة اللاديمقراطية بل ان كثيرا من الثورات المعاصرة في العالم الثالث بشكل عالم وفي بعض اقطارها العربية بشكل خاص لايكاد يعرف الجانب الاعظم من حقائقها المستورة تظل دفينة في قلوب قادتها فان ظلوا احياء ربما سجلوا بعضها او كلها او اتاحوا للاخرين تسجيلها اما ان رحلوا عن عالمنا فاما انها ترحل معهم وتختبئ تحت التراب في قبورهم او تتحول الى قصص ومذكرات ويوميات منثورة يكتبها من زاوية رؤيتهم من احاطوا بهم او كانوا بالقرب منهم ان مثال جمال عبد الناصر يظل رغم كل شئ معبرا بمأساوية عن هذه الحقيقة فسرعان ماقرأنا بعد موته عشرات الاجتهادات – في اسعد الاحوال – التي انصبت على تاريخ الثورة المصرية والادوار التي لعبها بعض الافراد الرئيسيين او الثانويين على مسرحها وهي جميعها ربما ما كان بوسعها ان تظهر الى النور لو كان (الشاهد) الاول مازال حيا.

بل ان قصة الثورة في العراق منذ 17-30-يوليو-تموز قصة الثلاثة عشر يوما التي كانت فيها الثورة مفتوحة الابواب امام حصان طروادة الجديد وبداخله عبد الرزاق النايف وابراهيم الداوود.. لولم يحسمها صدام حسين بجرأته النادرة وتخطيطه الذكي وقدرته الفذه على التنفيذ المحكم الدقيق فمن كان بوسعه ان يعرفها؟ولنتصور للحظة الفرض العكسي وهو ان الدخلاء على الثورة نجحوا في سرقتها والاستيلاء عليها وتصفية اصحابها الحقيقيين ترى ماالذي كان سيقوله التاريخ؟

تلك هي الفرضيات الثلاث الاساسية التي يضعها صدام حسين امام من يتصدى لاعادة كتابة التاريخ العربي او ربما بتغبير ادق لمن يتصدى لكتابته وهي فرضيات تمثل قواعد منهج جديد ينطلق من فلسفة لها منظورها الشامل المتكامل للامة العربية والقومية العربية والوطن العربي وهذا المنهج في اعتقاده هو اكثر المناهج قدرة على التعبير لا عن تميز هذه الامة حاملة الرسالة فحسب وانما عن خصوصية النظرة (البعثية) لماضيها وحاضرها ومستقبلها على السواء.

2- الدين والتراث : مراجعات ثورية

منذ مطلع القرن التاسع عشر على اثر العزيمة العنيفة التي احدثها التغلغل الاستعماري في الاقطار العربية، طرحت عمليا على الفكر العربي اشكالية الموقف من التراث. ذلك لانه حين وقف في مواجهة الاخر حاول ان يحدد ذاته وفي محاولته القيام بهذا التحديد كان عليه ان يجيب اولا على اسئلة فرضت نفسها عليه :ما هو ماضيه؟ماعلاقته به؟ باي معنى يمكن ان تكون ذاته. جزءا من الديمومة التاريخية التي بدأت من نقطة في الماضي البعيد؟ وباي معنى يمكن لذاته ان تقطع مع تلك الديمومة وان تنقطع عنها؟هل الحاضر استمرار للماضي ام ان التاريخ لايكرر نفسه ولايقبل الاستنساخ والاستعادة بل يتجدد في الزمان كل لحظة؟

ولاسبيل الى الشك في ان محاولة الاجابة على مثل هذه الاسئلة وغيرها مما يدور في مدارها لم تعد – كما كانت في الماضي – تشغل بال قلة من الباحثين التقليديين وعلماء الدين والفقه والتشريع ولكنها اصبحت تجذب اليها – وخصوصا في السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية وما تلاها – اعدادا تتزايد باستمرار من الباحثين والمفكرين ذوي الانتماءات الايديولوجية المختلفة والمناهج الفكرية المتباينة بل لعله يصعب ان نجد اليوم برنامج حزب من الاحزاب السياسية له وزن او ثقل او نفوذ على نطاق الساحة العربية ككل او داخل قطر من اقطارها دون ان نواجه فيه موقفا ما من قضية الدين والتراث اي من قضية الماضي – الحاضر – صريحا او متضمنا.

وغني عن البيان ان هذه المواقف – شأن كل مواقف تصدر عن انتماءات ايديولوجية مختلفة ومواقع اجتماعية متباينة – تتراوح بين النقائض فمن موقف نكوصي او ارتدادي كامل الى موقف انكاري رافض وما بينهما من مواقف تلفيقية تارة ومواقف انتقائية تارة اخرى ويمكن القول بشكل عام ان اهم حدثين في السنوات القريبة الماضية ساعدا على هذا التارجح العنيف في المواقف هما : هزيمة العرب في حرب يونيو – حزيران 1967 من جانب والثورة الايرانية في عام 1979 من جانب اخر.

فبعد النكسة العربية في عام 1967 ادعى بعض المفكرين والباحثين ان خلاص المجتمع العربي ليس له من سبيل سوى العودة الى الينابيع الاسلامية الاولى بعد ان انحرف عن الطريق القويم وسدر في مهاوي المادية والعلمانية والافكار المنحرفة المستورة فسقط في وهاد الغواية وابتعد عن القيم الدينية والخلقية النابعة من دينه وتراثه وفي ذلك كان مقتله.

وفي عام 1972 – على سبيل المثال – كتب الشيخ عبد الحليم محمود الذي كان يجلس وقتها على مقعد الامام الاكبر للجامع الازهر سلسة من المقالات نشرها بجريدة الاهرام المصرية يدعي فيها ان أس البلاد هو الفلسفة اليونانية وبالذات ارسطو والفلسفة الاوربية عامة وخصوصا ديكارت والمتفلسفة العرب وفي مقدمتهم ابن رشد فهؤلاء جميعا افسدوا – في رايه – التراث الاسلامي الذي قيض له الله من يذود عنه وهو الامام الغزالي والخلاص الذي اقترحه امام الجامع الازهر هو : العودة الى سواء السبيل الى المنبع الذي لا ينضب الى الاسلام ودستوره القران (فرسالته مستمرة ابدية خالدة انها الصراط المستقيم وهي الهداية الدائمة).

واللافت للنظر انه في العام نفسه اعلن حسين الشافعي الذي كان يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية المصرية في حديث مدو له (ان المجتمع الوحيد الذي يستطيع التصدي لاسرائيل هو مجتمع لا اله الا اللّٰه) بل انه في نفس الشهر اعلن واحد من كبار المسؤولين في الاتحاد الاشتراكي العربي :محمد عثمان اسماعيل الذي كان يشغل منصب امين التنظيم قائلا في الصحف الكبرى بالقاهرة (نفرط في سيناء ولا نفرط في عقيدتنا).

والذي يعنينا في هذا كله الان ليس هو الادانة لاصحاب هذه الافكار او حتى للافكار في ذاتها وانما موقفهم الفكري من التراث في حدود رؤيتهم له ولا بد من القول بوضوح ان التراث هنا ليس مقصودا لذاته والدفاع عنه ليس لوجه اللّٰه او الوطن او التاريخ انه سلاح ايديولوجي يستخدمه هذا الفريق من المفكرين او السياسيين استخداما سياسيا رجعيا شوفينيا فيه قدر كبير من التخلف والفجاجة وسوء التقدير انه محاولة للنكوص والارتداد من اجل المزيد من الهزائم والانتكاسات.

في الجانب المقابل نجد مجموعة من المفكرين الرافضين للتراث الديني والمنكرين له اننا نسمع مفكرا عربيا من لبنان يقول في كتابه (نقد الفكر الديني) وهو صادق جلال العظم اصبح الاسلام الايديولوجية الرسمية للقوى الرجعية المتخلفة في الوطن العربي وخارجه والمرتبطة صراحة ومباشرة بالاستعمار الجديد الذي تقوده امريكا كما كان الدين المصدر الرئيس لتبرير الانظمة الملكية في الحكم لانه افتى بان حق الملك نابع من السماء وليس من الارض ثم اصبح اليوم الحليف الاول للاوضاع الاقتصادية الراسمالية والبرجوازية والمدافع الرئيس عن عقيدة الملكية الخاصة وعن قداستها حتى اصبح الدين واصبحت المؤسسات التابعة له من احصن قلاع الفكر اليميني والرجعي.. ثم يؤكد بعد ذلك (ان الدين كما يدخل في صميم حياتنا وكما يؤثر في تكويننا الفكري والنفسي يتعارض مع العلم ومع المعرفة العلمية قلبا وقالبا روحا ونصا...)

وسنقرأ لمفكر اخر هو (ادونيس) حكما كليا يتمثل في هذه العبارات : بما ان الثقافة العربية بشكلها الموروث السائد ذات مبنى ديني اعني انها ثقافة اجتماعية لاتؤكد الاتباع فحسب وانما ترفض الابداع وتدينه فان هذه الثقافة تحول بهذا الشكل الموروث السائد دون اي تقدم حقيقي.. وهو سوف يقول بعد ذلك في محاولة لتبين اسباب التخلف الفكري في المجتمع العربي منتقدا فكر (الغزالي) ان هذا الفكر – فكر الغزالي – بقواعده وغاياته هو الذي يسود المجتمع العربي اليوم ولذلك فان الايديولوجية السائدة سواء في المدرسة والجامعة والبرامج التربويه والصحافة والاذاعة والكتاب انما هي قوة ارتداد نحو الماضي وقوة محافظة على الراهن الموروث... ومازال التطابق القديم بين تصور الواقع وتدبيره اي بين الدين والسياسة قائما وفعللا.

وعندما قامت الثورة الايراني.. تحت شعارات الديث وعباءة قياداته لم تكشف بعض اتجاهات الفكر العربي المعاصر عن هشاشة مواقفها الفكرية وافتقادها للتماسك المنطقي الاصيل فحسب وانما كشفت ايضا عن لامبدئية بعض قادتها وممثليها التي بدت في انتقالهم من الموقع الفكري الى نقيضة وان عددا من الكتاب العرب الذين ينتمي بعضهم الى اصول ماركسية قد جعلوا من انفسهم جوقة تردد ليل نهار اناشيد التهليل والتكبير للثورة الايرانية وللقيادة الدينية التي تلقي عليها بمظلتها ليس سقوط الشاه ودولته العميلة الرجعية هو مايثير الدهشة في تأييدهم غير المشروط لها وانما هو اكتشافهم فجأة ان (الدين) والجوهر الديني لطبيعة القيادات الايرانية الجديدة هو اصل الاصول في (ثوريتها) الى الحد الذي بلغ بادونيس الى ان يقول (هاهو ماكان يظنه بعضنا انه اصبح خارج التاريخ يبدو الان انه يدخل التاريخ من بابه الواسع وانه محركه الاول وهاهو ماكان يعتقد بعضنا

انه التقليدي والزائل يظهر الان وكانه وحده الحديث الثوري الباقي وهاهي ساعة الحضور الكامل تدق لما خيل لبعضنا انه الغياب الكامل...)

لم يكن ادونيس وحده بكبيعة الحال فالطابور طويل يضم بعض الذين يدفعهم الوضع العربي الراهن في صورته السكونية الى تصور الخلاص في عباءة رجل الدين الذي يسب امريكا ويلعن الاستعمار – دون ان يأخذه هذا الموقف اللفظي الى اتخاذ المواقف العملية التي يفترض انه يقتضيها حتى الان- كما يضم بعض السلفيين الذين يريدون العودة الى نظام الخلافة الذي لفظ اخر انفاسه عام 1924 في الاستانة مع انفاس (رجلها المريض) حتى وان اتخذ الخليفة هذه المرة اسما جديدا هو (الامام) او (روح الله) او (اية الله) اما البعض الثالث في هذا الطابور فهو الذي يريد محاربة القومية العربية وتيارها الاصيل الزاحف والمتقدم في المنظور العام الشامل لا في المنظور الجزئي المحصور والمحاصر في لحظة معينة تحت شعارات الامة الاسلامية والوحدة الاسلامية والايديولوجية الاسلامية وقد لايكون الالحاح الان من جانب الدول الامبريالية على اذكاء النوازع الدينية المتعصبة والهابها في بعض اقطارها العربية بغير مغزى في هذا الصدد كما ان الاكتشاف – المتاخر؟ - من جانب تلك الدول الامبريالية وخصوصا الولايات المتحدة الامريكية لاهمية الحضارة (الاسلامية) وعقد المؤتمرات والندوات في الجامعات الامريكية ومراكز البحث الغربية. حولها قد يكون هو الاخر مؤشرا موحيا على استغلال الامبريالية القديم – الجديد للدين ومحاولتها تثبيت مواقعها القائمة او العودة للتسلل الى مواقع جديدة تحت عباءته ولاشك ان محاولات الاستغلال هذه تعود الى اكثر من قرن مض بطريقة مباشرة او غير مباشرة وسواء عن طريق الهجوم السافر على الاسلام من جانب حفنة صغيرة – او كبيرة – من المستشرقين والمبشرين واساتذة الجامعات او عن طريق بث الفتن بين اصحاب الديانات المختلفة داخل الوطن العربي او احيانا بين اصحاب المذاهب المختلفة داخل الدين الواحد او عن طريق الاجتهاد في الاحتواء السافر او الساذج. ولعلنا ما زلنا نذكر كيف اشهر نابليون بونابرت (اسلامه) في القاهرة اثناء الحملة الفرنسية على مصر وكيف عملت بريطانيا العظمى على بث الفرقة بين المسلمين والاقباط اثناء احتلالها لوادي النيل وكيف عملت فرنسا الامبريالية القديمة على تمزيق بلاد الشام ولبنان على وجه الخصوص في فتنة الستين (1860) وكيف حاولت الدولتان الامبرياليتان القديمتان الهاب الطوائف والاقليات الدينية في العراق والخليج العربي والمغرب العربي كله وقد يكون من (الطرائف) الاستعمارية الفجة ان يؤلف مستشرق كبير مثل ماسينيون كتابا عن (لهجة بغداد العربية) يتحدث فيه عن التفاوت في (لغات) السنة والشيعة والمسيحيين بين سكان بغداد ((ولهذا الكتاب ترجمة عربية طبعت في بغداد عام 1962)).

ازاء هذا كله يكتسب النص الذي قدمه صدام حسين بعنوان : (نظرة في الدين والتراث اهمية بالغة وخصوصية وتميزة لا من حيث انه محاولة جادة وعميقة وحاسمة لاعادة وضع الرؤوس فوق اكتافها مرة اخرى فحسب وانما لانه يمثل اضافة فكرية وسياسية مهمة للتراث القومي العربي في العصر الحديث بل وللتراث الفكري والسياسي لحزب البعث العربي الاشتراكي نفسه يقدمها هو ليس مفكرا او قائدا سياسيا فقط ولكن رجل دولة يمسك بزمام السلطة في واحد من اهم اقطار الوطن العربي ايضا.

وينبغي ان نقول من البداية ان حزب البعث العربي الاشتراكي هو حزب يضيف الى جوهره القومي فكرة العلماني مثلما هي دولة البعث في العراق في نظريتها التي تهتدي بها وفي ممارستها دولة قومية وعلمانية ولكن جوهره القومي ونزوعه العلماني لم يحولا

بينه وبين وضع العلاقة بين حاضر الامة وماضيها وضعا صحيحا وطرح قضية الدين والتراث طرحا اصيلا بل على العكس ربما ما كان بوسعه ان يصل الى ذلك الوضع الصحيح والطرح الاصيل لو لم يكن يلتصق بذلك الجوهر القومي ويتمسك بالنزوع العلماني.

ان مؤسس البعث ميشيل عفلق يؤكد : ان حزبنا منذ بدايته ومنذ التطور الاول استلهم تراثنا العربي... تراثنا الروحي وهذا متجل في جملة كتابات وشعارات في بداية الحزب... متجل بصورة خاصة في شعار الحزب الذي يقول :

ان امتنا واحدة وبان لها رسالة خالدة.. بل ان محاضرته التي القاها في جامعة دمشق في وقت مبكر من دعوته(عام 1943) والتي نشرت تحت عنوان : (في ذكرى الرسول العربي) لدليل على التوجه الاصيل من البداية لفكر البعث نحو استلهام التراث بطريقة ثورية لقد حلل في محاضرته جوهر الاسلام وجوهر شخصية الرسول كقائد فذ وثائر عظيم ثم اجتهد في ان يقيم الرابطة الحية بيننا وبينهم كي نتمثل ما تضمناه من معاني البطولة والانسانية الخالدة التي تصلح لنا منطلقا في حاضرنا وهاديا لنا على الطريق ولقد رأى في حياة محمد العظمة التي كانت تنطوي عليها حياة العرب جميعا (كان محمد كل العرب.. فليكن كل العرب اليوم محمدا).

غير انه كان يقول ايضا ان (التشبع بالتراث القومي لايعني مطلقا العبودية للماضي والتقاليد ولا يعني فتور روح الابتكار.. ذلك لان استلهام التجربة الخالدة في حياة الامة العربية انما يعني استلهام الابداع والدوافع والقيم الانسانية العميقة القيم الثورية التي لا تخول الامة حقوقا وامتيازات بقدر ماتحمل ثورتها المعاصرة مسؤولية كبرى.... وهو المعنى الذي سوف يؤكده قادة البعث الفكريين والسياسيين في كل وقت وهو مالخصه احمد حسن البكر في عبارة قصيرة موحية:

(كونوا معاصرين شرط ان تكونوا اصيلين فالمعاصرة لاتعني انقطاع الجذور).

وبهذا المعنى لايتحول الماضي الى صنم جامد اخرس ولايصبح التراث جثة هامدة ميتة يتعبد في محرابها من يعبدون الموتى بل لايعود الحاضر مجرد استمرار للماضي وانما يصبح صيرورة اي حالته حالة دائمة.. - على حد تعبير الياس فرح احد مفكري البعث – فاحياء الثراث لايعني الرجوع الى الماضي بل يعني فهم التراث فهما علميا ثوريا على ضوء متطلبات النضال في المرحلة التاريخية الراهنة للامة العربية.

وميشيل عفلق كان قد الح على هذا المعنى في اكثر من موضوع في كتاباته : اننا لم نلجأ الى التراث كما يفعل التقليديون من اجل التكرار والتقليد تكرار القول والتقليد غير المثمر وغير المنتج نظرنا الى التراث عبر نظريتنا الى العصر وحضارته الى العصر ومشاكله الى العصر ومقومات قوته وعبر نظرتنا الى واقعنا المتخلف فكانت نظرتنا جديدة اي اننا لم نطلب من التراث ان يكون بديلا عن الجهد الذي يطلب منا ان نقدمه وانما نحن عشنا الثورة المعاصرة بكل متطلباتها ومن خلالها وجدنا ان تراثنا يعطينا اصالة لايمكن لاية ثورة واية نظرية فلسفية معاصرة ان تهبنا اياها وهذا الفهم للتراث هو الذي جعل الحزب يستمد من قوة روحية واخلاقية لاتستند اليها بقية الحركات... وهو سوف يؤكد المغزى الثوري للارتباط بالتراث وللجدل مابين الحاضر والماضي في ثعبير بالغ الدلالة (التراث لانفهمه الا عندما نناضل)

تلك اذن هي طبيعة العلاقة الصميمية – في فكر البعث – بين الماضي والحاضر بين التراث والمعاصرة ليست القضية نكوصا وارتدادا تحت وهم الخلاص الزائف بالماضي وحده ومن خلاله كما انها ايضا ليست انكارا ورفضا خاطئا ومستحيلا بالهروب من الماضي كله والتعلق بوهم مستقبل منقطع الجذور وهي ليست كذلك دعوة للتوفيق بين النقائض او التلفيق عن طريق الانتقاء

انها الامتلاك الثوري للتراث الذي لايتحقق الا من خلال العملية الثورية التي تحرر المجتمع وتحرر التراث في الوقت نفسه انها الامتلاك الثوري للماضي وتجاوزه بل من اجل تجاوزه انها لحظة النفي الجدلي للاغتراب.

صدام حسين يؤكد في بداية حديثه ان (عقيدتنا ليست حصيلة جمع كل ما يحمله الماضي والدين وانما هي نظرة شمولية متطورة للحياة وحل شمولي لاختناقاتنا وعقدنا ودفعها الى امام على طريق التطور الثوري.. ولانها ليست حصيلة جمع الي وميكانيكي فانها تنطوي في صميمها على معنى التخطي والتجاوز انها مترشحة عن واقع امتنا ومتقدمة عليه في نفس الوقت. واذا كان الماضي موجودا في الحاضر ومؤثرا فيه ومن خلاله فأن مسألة القيم تطرح نفسها بالضرورة فهل يمكن للقيم التي وجدت في الماضي ان تمارس تأثيرها على الحاضر بنفس الشكل والطريقة ومن خلال نفس المنظور؟

وبعبارة اخرى هل تتغير القيم وتتحول اشكالها ومضامينها بتغير الزمان والمكان وتحول المجتمعات على طريق التطور ام لا؟ وبتعبير موجز: هل القيم الاجتماعية نسبية ام مطلقة؟

صدام حسين يجيب بوضوح بأن القيم الاجتماعية مقاييس موضوعية متطورة وانها مطلقة ونسبية في نفس الوقت انها مطلقة ضمن صيغ التطور في كل مرحلة من المراحل المتعاقبة.. وهي نسبية في حسابات النظرة الشمولية للحياة في حركتها العامة المجردة عن خصوصيات المراحل الزمنية والمكانية والحالات المحددة الاخرى.

غير ان ثمة بطبيعة الحال ونتيجة اوضاع مجتمعاتنا المختلفة وخضوعها الطويل لقوى الاستعمار والرجعية من يضفون على النسبي صفة المطلق ويخلعون على المؤقت بالضرورة ثوب الابدية وهم بالتالي – ارادوا او لم يريدوا – ينتهون الى اعقام الحاضر وتجميده وافراغه من ديناميكيته وقدرته على النمو والتطور والتقدم تارة باسم تراث الماضي وتقاليده وتارة اخرى باسم الدين.. وصدام حسين يقول لهم بصراحة قاطعة (ان حزبنا ليس حياديا بين الالحاد والايمان) وانما هو مع الايمان دائما ولكنه ليس حزبا دينيا ولا ينبغي ان يكون كذلك)

ولكن النكوصيين الارتداديين الذين يبحثون عن الخلاص بالماضي وحده ومن خلاله تحت وهم امكانية تكراره يذهبون في تفكيرهم وسلوكهم الى حد التعصب الاعمى المقيت بل انهم يتحولون – او يحولون انفسهم – الى اوصياء على المجتمع وعلى حاضره باسم ماضيه لم يحدث ذلك في مجتمعاتنا العربية وحدها ولكنه حدث في المجتمعات الغربية ايضا ولكن منذ قرون ان القصة الخيالية التي رواها ديستوفسكي في روايته الشهيرة (الاخوة كرامازوف) تشير الى هذا المهنى وتجسده بطريقة بالغة الدلالة اراد ديستوفسكي ان يصور كيف تحولت العقيدة نفسها الى صنم هائل يحميه ويحرسه ويفيد من تاثيره الوثني الكرادلة والكهنة في عصور محاكم التفتيش التي اعدمت على الات التعذيب مئات الناس في اشبيلية باسبانيا وكان على راس هذه المحاكم احد الكرادلة : شخص مروع يرهبه الناس جميعا ويثير اسمه الذعر بينهم لقدرته الدائمة على ان يصدر امره بقتل اي انسان بدعوى انه خارج على الدين.. الدين كما يتصوره هو بالطبع وطبقا لمذهبه المحدد في فهمه وتفسيره.

وذات يوم فوجئ اهل المدينة بأن المسيح نفسه قد ظهر فوق الارض مرة اخرى بعث حيا من جديد وايقنوا انه هو فعلا المسيح من هالة الضوء التي تحيط به دائما ومن المعجزات التي قام بتحقيقها امام كل الناس وحملوا اليه نعش طفل لمسه المسيح وقال له انهض فنهض الطفل على الفور وخشعت كل القلوب وجاء الكاردينال الرهيب ورأى المشهد بعينيه المسيح واقفا والكل حوله

واقف يتمتم بالصلاة وتضاءل الكاردينال. سقط قناع الدين من فوق وجهه ولم يبق تحته الا وجه سفاح واقترب المسيح من الكاردينال وامام الجموع تواجه الدين مع رجل الدين وحدق المسيح في عيني قاتل الرجال باسم المسيحية وفهم الكاردينال ان المصيح يدينه فاستدرجه الى السجن وضع الكاردينال (المسيحي) المسيح نفسه وراء القضبان ثم راح يتحدث عن المسيحية التي تلاقي الاضطهاد والعذاب والكرادلة الذين يتحملون العنف والالام في سبيل الدفاع عنها ثم ازداد في صفاقته غلواء فراح يشرح للمسيح كيف تغيرت المسيحية نفسها وكيف تشكلت معانيها الجديدة في اذهان الناس. واخيرا وصل الى هدفه اعلن له ان وجوده في المدينه بات يشكل خطرا على المسيحية اي ان المسيح نفسه اصبح يمثل تهديدا للمسيحية وبمعنى اخر فان المسيح لم يعد مسيحيا وكانت ذروة المهزلة. عندما طلب الكاردينال من المسيح ان يغادر المدينة على الفور بدلا من ان يصدر امره بمحاكمته بتهمة الكفر بالمسيحية وبالفعل اطلق الكاردينال المسيح من قبضته الحديدية وراء (اليوشا) بطل ديستوفسكي في (حلمه الكئيب) وهو يعبر الحدود كسيف البال مثقلا باحزان لا حد لها منفيا من المدينة مدينته.

ماالطريق اذن لمواجهة هذا التعصب هذا الاستغلال المقيت للدين؟ هناك طريقان كلاهما تكتيكي ومؤقت الاول هو (التعتيم والتعتيم) من اجل كسب الاغلبية وهو تعتيم وتعتيم مرحلي بالضرورة يقتصر على حدود زمنية معينة ولتجاوز مأزق مؤقت الاغلبية تصبح هنا وسيلة. اداة تعبر على غرائزها المدغدغة. السلطة الى اهدافها ومراميها ولكن صدام حسين يعلن في تحديد قاطع (لانريد ان نستخدمها تحقيقا لهدف او اهداف انية او مرحلية ثم نلفظها ونتنكر لها في مرحلة لاحقة كما يفعل اليمينيون وبعض فصائل الطبقات المستغلة في علاقاتهم مع الجماهير وانما نريد ان تكون الاغلبية من الشعب الى جانبنا في كل الاحوال وبصورة دائمة... ان المعالجات الصميمية والجذرية لمشاكل الشعب والظواهر الاجتماعية والاقتصادية الاساسية وغيرها تتطلب الابتعاد عن التعميم والاتجاه الى تخصيص الاهداف والمعالجات والقوى الفاعلة الى جانب الثورة في نفس الوقت الذي يتطلب الامر فيه تشخيص اعداء الثورة وتحالفاتهم في كل مرحلة من مراحل النضال...

اما الطريق الثاني فهو التداخل مع الخصم. التحول الى مواقعه خلط المفاهيم الالتقاء (المؤقت) مع افكار الخصم والتلون والتشكل بالوانه واشكاله والدخول في اللعبة فوق ارضه ووضع شاراته على الصدور بهدف التاثير فيه وقيادته بعد ذلك على الطريق الصحيح وصدام حسين يرفض هذا الطريق التكتيكي ايضا لان (ماتحتاجه في القضايا الاساسية لقيادة الشعب وفي مواجهة اعدائه والانتصار عليهم بصورة دائمة هو ان تضع العدو في موقع يجعلك متميزا عنه وان تكون الساحة مكشوفة بينك وبينه بما يمنع تداخل الخنادق ويحقق المدى المطلوب للاصابة المؤكدة لتتمكن بندقيتك من تادية واجباتها بدقة عندما يكون مطلوبا استخدامها وليس استخدام السلاح الابيض او مهارة المصارعة...)

فما هو المطلوب اذن للرد على مسألة التعصب الديني والمذهبي في هذه المرحلة؟ ان الطريقين السابقين كليهما خاطئ ولا يحقق الهدف ان التخصيص والوضوح مطلوبان بشدة (لكي نكسب كسبا صميميا وراسخا ونجعل دور حزبنا قياديا في تحريك وتغيير وقيادة المجتمع) كما ان خلط المفاهيم وتمييع المواقف وتداخل الخنادق) يخسرنا المعركة ويهزمننا هزيمة ساحقة ويضعنا امام ازمة فكرية في نفس الوقت الذي نخسر فيه سياسيا وبذلك نخسر في موقعين نخسر الارضية الفكرية التي نرتكز عليها والتي هي مصدر قوتنا الاساس ونخسر سياستنا كذلك وبذلك نفقد التماسك الفكري ونفقد التميز ونخسر جهودنا..

فهل تكون الدعوة الى رفض الدين والابتعاد عنه وانكاره هي الحل المطلوب للاشكال؟ ان هذه الدعوة فضلا عن انها لاتتسق مع الموقف (غير المحايد) بين الايمان والالحاد فهي (نظرة مرفوضة من قبلنا وهي خاسرة في كل الحسابات)

الحل المبدئي الحل الاستراتيجي الحل الثوري الحقيقي يعلنه صدام حسين بجرأة حاسمة كحد السيف : المطلوب منا هو ان نكون ضد تسييس الدين من قبل الدولة وفي المجتمع وضد اقحام الثورة في المسألة الدينية وان نعود الى اصل عقيدتنا وان نعتز بالدين بلا سياسات للدين)

المعني المباشر لهذه العبارات هو التمسك بالدولة القومية العلمانية والارتفاع فوق الانقسامات الدينية والطائفية والمذهبية المختلفة المواطنون جميعا بصرف النظر عن دينهم وطائفتهم ومذهبهم متساوون امام الدولة ولا فضل لمواطن على اخر الا بمدى تعلقه بوطنه وارتباطه بالثورة ونضاله من اجل بناء مجتمعها الجديد وتحقيق مثلها وتجسيد اهدافها فليؤمن كل مواطن بما شاء من كتب السماء وليعتنق ما يشاء من مذاهب الارض فالكل امام الدولة والثورة سواسية كأسنان المشط.

يجب ان نتذكر ان هذا الحل الذي يقدمه صدام حسين هو تجسيد لأحد المبادئ الاساسية في كل وثائق حقوق الانسان التي كافحت من اجلها البشرية طويلا ودفعت في سبيلها ملايين الضحايا والشهداء على مدى العصور وتجسيده هنا داخل العراق حيث نواجه عددا من الاقليات الدينية والطائفية يكسبه بعدا تقدميا خاصا لانه يضع المبدأ النظري في تحد يومي مع السلوك العملي ويوشك العراق – في هذا المضمار – ان يكون واحدا من البلدان القليلة في العالم الثالث عامة وفي الوطن العربي خصوصا التي تواجه فيها قضية الاقليات الدينية والطائفية بهذا الانفتاح العقائدي العصري على مستوى النظر والتطبيق معا.

ان الدولة التي تقحم نفسها في صراع ديني تحت غطاء سياسي. او في صراع سياسي تحت غطاء ديني تخسر في النهاية وحدة شعبها وتتحول مهما كان الطرف الذي تناصره في هذا الصراع الديني الى دولة قطاع من المواطنين في المجتمع فقط الى دولة اقلية بل وحتى في الدول التي لاتواجه مشاكل اقليات بداخلها لاينبغي ان تدخل الدولة كأجهزة ومؤسسات في صراع يتخذ صيغة من هو مع الدين ومن هو ليس معه ان الدولة الحديثة ليست مؤسسة للوعظ والارشاد وليس قادتها كرادلة جددا يمنحون الناس صكوك غفران او يحرمونهم منها ان مثل هذه المعارك داخل مجتمعات العالم الثالث ومجتمعاتنا العربية من بينها هي الباب الواسع الذي يدخل منه الاستعمار دائما والنفوذ الاجنبي ومن النادر ان نجد اليوم مجتمعا من هذه المجتمعات النامية يسمح قادته بأن تدور في ساحته مثل هذه المعارك الدينية دون ان نلمح اصابع الاستعمار سافرة تصب الزيت وتوقد النار او داخل قفازاتها الخشنة او الحريرية تدفع من وراء الستار رجالها وعملاءها والسذج والمتخلفين من الطغاة الصغار كي يهدموا المعبد على رؤوس من فيه ومن بينها رؤوسهم نفسها.

لقد اوضح صدام حسين (ان انتهاج سياسة للتدخل في الشؤون الدينية يؤدي الى ان ينقسم شعبنا ليس بين المتدينين وغير المتدينين فحسب وانما بين المتدينين انفسهم بضوء اجتهادهم وانتماءاتهم الدينية والمذهبية المختلفة)

وينبغي ان لايغيب عن بالنا انه من بين الاسباب الجوهرية التي ادت في الماضي الى ضعف ثم الى تآكل دولة الوحدة العربية الكبرى في ظل الاسلام من داخلها كان هو انقسام مواطنيها وتمزق وحدتهم بين عدد من المذاهب والتيارات بلغت اكثر من عشرين مذهبا وتيارا : السنة والشيعة والعلوية والزيدية والشافعيى والدرزية والاباظية والاسماعيلية.. وغيرها مما سبقها من

معتزلة ومرجئة وخوارج وباطنية الى اخر التيارات والمذاهب التي عبرت في زمانها عن اجتهادات انسانية وخلافات انسانية وكانت رغم عظمة بعض من قادوها عباءة فضفاضة تختفي بداخلها صراعات سياسية واجتماعية وعلى حد تعبير احد الكتاب العرب المعاصرين الذي يدعو الى اسلام واحد فان كل الاحداث التي ادت الى ظهور هذه المذاهب والمدارس والتيارات كانت احداثا انسانية وخلافات انتسانية وقد كان اقلها دينيا واغلبها سياسيا اجتماعيا حتى الديني منها لم يكن في صميمه دينيا انما كان خلافات سياسية واجتماعية البس ثياب الدين... وهو ينتهي الى القول بانه (لايجوز ان نترجم معارك ماقبل الف سنة الى دساتير اسلامية تنص على مذهب دون اخر ولا ان نفرق في دولة ما بين ابناء مذهب ومذهب ولا ان نكتب على بطاقة انسان مذهبا دون مذهب... اسلام واحد بلا مذاهب..)

وعندما تكون عاجزا عن توحيد المجتمع فان شفاء العجز لن يكون في الهروب اما الى الانقياد او الى الالحاد وصدام حسين يعي هذه الحقيقة جيدا ويلح عليها كثيرا (لأن الاستسلام للدعوات الرجعية لبعض الاوساط الدينية يستلزم ان تترك دورك القيادي للمجتمع المتمثل في حركة ثورية تصنع الحاضر وتتطلع الى المستقبل بطرق وبصيغ واضحة معروفة وان تتخلى عنه لتنتظم في صفوف حركة سلبية متخلفة تقتصر على التطلع الى الماضي... وتبدأ السلم من اوله) ولن يجدي كثيرا التظاهر بتعقب الرجعية وتصور امكانية احتوائها وافراغها من سمومها عن طريق التداخل او الالتحام المؤقت المحسوب معها ذلك (لان الرجعية الدينية وفق مثل هذه النظرة والسلوك سوف تكون هي قائدة المسيرة لا انت نظرا لان لكل طريق ولكل منطلقات قادتها ولذلك فلن تكون انت الذي سيقوم بتعبئة الجماهير على هذا الطريق لتستطيع التحكم في مساراته واتجاهاته اللاحقة لتكيف وفق ماتريد.. وانما هناك قادة غيرك من اوساط الرجعية وتخصصون في هذه المسألة سيتولون هم الامور على طريقتهم).

غير اننا ينبغي ان نقول ان صدام حسين في الوقت الذي يلح فيه على ان الدولة لا شأن لها بالممارسات الدينية والمذهبية للمواطنين ويرفض باصرار المساومة مع الرجعية عن طريق الانقياد المؤقت او التكتيكي لها او الاندفاع الى الطرف الاقص المقابل الذي يدعو الى الالحاد او يشجع عليه ويؤكد دائما على الخط المبدئي الثابت للدولة والثورة ازاء هذه القضية الحساسية القابلة في كل المجتمعات للالتهاب السريع فانه لايغفل عن امرين مهمين في هذا الصدد :

اولهما :ان الرجعية نفسها قد تكون هي المبادرة – واغلب الظن انها هي المبادرة دائما بذاتها او بمن هم من ورائها – لفتح هذه المعارك.. وثانيهما : ان ترك القضية لذاتها او لاصحابها مع حياد الدولة ليس من شأنه ان يقودها خصوصا في مجتمعات متخلفة يقف الاستعمار دائما منتظرا خلف ابوابها للتسلل اليها من جديد الى الطريق الصحيح.

في الامر الاول يقول صدام حسين بوضوح : (فلندع الجميع يمارسون طقوسهم الدينية الاعتيادية وفق اختياراتهم من دون ان نتدخل في شؤونهم وشرطنا الاساس في ذلك (ولنضع خطأ تحت كلمة شرطنا الاساس هذه) هو ان يبتعدوا في ممارساتهم تلك عن التناقض او التصادم مع سياستنا في تغيير ةبناء المجتمع وفق اختيارات حزب البعث العربي الاشتراكي محذرين اياهم من ان استخدامهم الدين غطاء للسياسة او غطاء للوصول الى حالة من التناقض والتصادم بين الثورة في منهجها واهدافها وبين الممارسات الدينية.. لايمكن ان يكون الافي خدمة الاستعمار الجديد واهدافه وان نشاطا من هذا النوع لا يمكن الا ان يقع تحت طائلة العقاب الصارم والقبضة الحديدية للثورة).

وفي الامر الثاني : يؤكد صدام حسين على ضرورة التثقيف والتوعية والتربية وهنا يبدو عامل الزمن مهما. بشرط الا يستخدم لاغراض التدرج (بحيادية) وانما (بمنهجية) (ويلعب الانسان بارادته الواعية دورا مركزيا فيها).. انه يقول عليك ان تقبل بمراعاة عامل الزمن على الا يفلت من يديك الزمام ولاتدع الزمن يستخدم لكي يفلت من يديك الزمام فيصبح دورك ثانويا بدلا من ان يكون قياديا).

وعندما يتم التقاط المفاتيح المركزية التي تكفل وتضمن حركة المسيرة في اتجاهها الصحيح وعندما نتمكن من استخدام عامل الزمن بوعي ويقظة وحذر وعمل دائب وايجابية في الفكر والسلوك وفعالية ديناميكية في بناء المجتمع الجديد لكل الناس وبكل الناس... (عندما لاخوف من العدو الخارجي الذي ينتظر خلف السياج).

انه الاعتزاز بالدين اذن دون الانخراط او التورط في سياسات للدين. انه الانحياز الى الايمان دون الانحياز لطرف في المعارك الدينية او المذهبية انه التمسك بالجوهر الروحي الذي يحض على الخير والعدل والعطاء والتضحية والتقدم في صميم الدعوة الاسلامية (ولكن بصيغ جديدة ومن منطلقات جديدة وبحلقات مفتوحة للاجتهاد والتطور المستمرين)

وصدام حسين يرى بحق ان مايطرحه المجتمع الحديث الذي نعيشن مشاكل وتحديات تتطلب المواجهة والمعالجة والحلول العملية لها تختلف اختلافا اساسيا عن المشاكل التي فرضت نفسها على العصور الاسلامية الاولى حيث وضعت قواعد الفقه (بحيث اصبح التشريع والفقه الاسلامي احد المصادر المركزية التي تستقي او تستلهم منه التشريعات القانونية وليس قانون الحياة الراهنه اضافة الى ان الانسياق وراء الرجعية في اعتبار ان نظرية الحياة العصرية بما فيها من تطور يجب ان تكون انعكاسا لتعاليم الفقه القديم يقود المسلمين الى الاختلاف الذي يؤدي الى الفرقة نظرا لاختلاف المذاهب والاعتبارات الاخرى وبذلك نكون قد وفرنا الاجواء اللازمة للاستعمار الجديد ليلعب لعبته الخبيثة في شق العرب وتسريب المخططات التي تستهدف الثورة والوطن العربي باسره بالاضافة الى ان مثل هذا الطريق لايعدو ان يكون جريا وراء السراب...)

ولنتذكر مثالا قريبا على محاولات الرجعية الحد من التطوير القانوني الاجتماعي والاستئثار بحق النظر في هذه التطويرات لامتحان مدى اتساقها او تنافرها مع قواعد الفقه القديم. المثال من مصر. ففي 25 مارس – اذار 1974 نشرت وزارة الشؤون الاجتماعية المصرية اقتراحا بتعديل قانون الاحوال الشخصية وطلبت الى المفكرين ورجال القانون واصحاب الرأي تدارسه واعلنت عن نيتها لتقديمه لمجلس الشعب لمناقشته واصداره كقانون فما الذي حدث؟ في يوم 30 مارس – اذار.. اي بعدها باربعة ايام فقط عقد بالجامعة الازهرية مؤتمر حضره لفيف من علماء الدين وفقهائه واعلن المؤتمر رفض الاقتراح (لان تقنين الاحوال الشخصية هو مهمة رجال الازهر وليس من اختصاص وزارة الشؤون الاجتماعية ومجلس الشعب).. وكانت التعديلات المقترحة تختص ببعض حقوق المرأة وحمايتها بل ان المؤتمرين خرجوا بعد اجتماعه في مظاهرة – وياللغرابة – ليعلنوا عن سخطهم على سلب حقوقهم الفقهية.

ان القارئ الاوربي قد تساوره الدهشة عندما يرى اننا مازلنا نتحدث في نهاية القرن العشرين عن مثل هذه المظاهر والمواقف الرجعية والتقدمية منها وهي الامور التي تخطتها – او تخطت الجانب الاعظم منها – اوربا منذ قيام ثوراتها (البرجوازية) وفي مقدمتها الثورة الفرنسية الكبرى ولكن ربما كان من المفيد ان يتذكر ان مثل هذه المظاهر والقضايا والمواقف هي من بعض اثار

التخلف الذي ارخت سدوله على بلادنا العربية.. اوربا (الاستعمارية) نفسها فلم يكن نهب الثروات المادية وتحويل اقطارها الى مجرد مصادر للمواد الخام واسواق لتصريف منتجاتها المصنعة هو هدفها الوحيد فقط وانما كان زرع الفرقة الدينية والاحقاد الطائفية والصراعات المذهبية من بين الوسائل الاساسية التي لجأت لاستخدامها حتى يحترق شعب المنطقة بنيرانها وتتبخر طاقاته مع دخانها ويتم لها النهب المادي والسلب البشري في امان وكان استلاب الانسان العربي واعقام طاقاته وملكاته وامكاناته على الخلق والابتكار والتطور والتقدم واللحاق بالموكب البشري الصاعد هدفا اساسيا ايضا. لا يقل في اهميته عن الاستنزاف السريع والمتواصل لثروات الوطن فهذا الانسان الذي صنع حضارة عربية انسانية في وقت كانت فيه اوربا تعاني من كثافة الظلمة في قرونها الوسطى وتواجه كرادلة وكهانا لاهم لهم الا اشعال المحارق واتلاس اراضي (الجنة) وبيعها لمن يدفع ثمنا اكثر كان لابد له من ان يموت حتى تزدهر الحضارة الاوربية او الغربية الجديدة وينعم المواطن الاوربي بالرفاهية المادية والرخاء الاجتماعي.

غير ان هذا الانسان العربي بطاقاته وملكاته وبتواصله العميق مع عقائده وتراثه العريق (بعث) مرة اخرى برغم طغيان الاستعمار وقهر الرجعية.

وهو يجتهد الان في ان يزيح عن كاهله اثقال (قرونه الوسطى) بتخلفها ورجعيتها وظلامها وانتهازيتها ليبني حضارته الجديدة العربية والانسانية معا.

